

التراث الأثري والتنمية المحلية

إيفري ن عمرو أوموسى بوادي بهت
(جماعة أيت سيرن إقليم الخميسات بالمغرب) نموذجاً

أ.د. مصطفى أعشي

أستاذ باحث في تاريخ وآثار المغرب القديم

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: « فكأَي من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وير معطلة وقصر مشيد »
يقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ».

و الذي يهمنا في هذه الآيات وهذا الحديث الشريف هو الإشارة إلى آثار الذين سبقونا ونبأ ما قبلنا، وأعتقد أن المقصود بهما هو أخبار الماضي الذي يتضمن الآثار والسجلات التي تتحدث صفحة 11 من 252 ث عن هذا الماضي.

فماذا نعني بالآثار؟

الآثار سجل مادي للناس الذين أنشأوها حسب الصورة التي رأوها في تفاعل تام مع مجاهم. وعليه، فإن الآثار التي خلفتها لنا الأجيال السابقة عبارة عن مرآة لتفكيرهم وصدى لهواجسهم وعقائدهم التي كانت تشغل بالهم وأيامهم في وئام تام مع بيئتهم.

ونحن أحفاد هؤلاء الأجداد الذين خلفوا لنا هذه الآثار، لا يمكن أن نعيش وأن نساير الزمان إلا إذا كان لدينا تضامن وثيق مع هذه الآثار، لأن الارتباط بهذا الماضي يقينا من آفة النسيان، ولأنه بدون هذه الآثار لا يمكن أن تنسجم الأجيال المتعاقبة.

لذلك، علينا أولاً أن نتعرف على هذه المخلفات الأثرية، وذلك بالقيام بالتحريات والتنقيبات والجرد ووضع الخرائط لها.

ثم ثانياً التعريف بها وإخراجها للوجود، مع العمل على استيعاب ما تتضمنه من معاني.

إنما الأمم الآثار ما بقيت فإن همو ضاعت آثارهم ضاعوا

مع الاعتذار لأمير الشعراء أحمد شوقي القائل

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وانطلاقاً مما سبق، فإن المجموعة العلمية المغربية التي تبحث في موضوع:

« العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل التاريخ في هضاب زمور »

المكونة من الأساتذة : مصطفى أعشي ويوسف بوكبوت وعبد الواحد ابن نصر وفتحي عماني، التي تأسست سنة 2004، بدأت عمليات التحري سنة 2005، ثم شرعت في التنقيبات الأثرية سنة 2006 بوادي بهت (انظر الخريطة رقم 1) اعتماداً على مؤشرات اللقى الأثرية المتمثلة في الفخار الجرسى الشكل (céramique campaniforme) (صورة رقم 7)، والفؤوس الحجرية المصقولة؛ هذا فضلاً على المواصفات العلمية التي تتوفر في الكهوف التي كان يسكنها الإنسان خلال عصور ما قبل التاريخ، والمتمثلة على الخصوص في مواجهتها للشمس طيلة النهار (الجنوب الشرقي) وقربها من الماء، إذ أن إفري ن عمرو أو موسى (الصور 1 و 2 و 3) يشرف على رافدي نهر وادي بهت (الخريطة رقم 2). والمعروف أن الماء أساس الحياة؛ لذلك فإنسان العصر الحجري المعدني بصورة خاصة وإنسان عصر ما قبل التاريخ بصورة عامة، كان يختار الكهوف القريبة من الماء لاحتياجه إليه ولأن الحيوانات تأتي إلى الماء لتروي ظمأها فكان يتحين الفرص لاقتناصها.

وعندما شرعنا في التنقيبات انطلاقاً من فاتح أبريل 2006 كانت المفاجأة الأولى أننا في كهف هجره الإنسان بعد مرحلة الحضارة الحجرية المعدنية مباشرة، المعروفة أيضاً بالحضارة الجرسية الشكل، نظراً لتواجد الفخار والحجر والمعدن

في مستويات أثرية واحدة.

وأن هذا الكهف ظل مهجورا تقريبا إلى غاية القرن العشرين عندما سكنه أحد قطاع الطريق الذي كان يجمع فيه كل ما يسرقه ويوزعه على المحتاجين واسمه عمرو أو موسى. لذلك أصبح الكهف يعرف لدى سكان المنطقة تحت اسم إيفري ن عمرو أو موسى.

وهناك أساطير عديدة يحكيها الناس حول الكهف وحول صاحبه عمرو ن أو موسى، مما جعل الرعاة والناس عامة يتحاشون الدخول إليه خوفا مما لا تحمد عقباه.

ومن خلال المربعات الأربعة عشر التي نقبنا فيها طيلة شهر أبريل 2006 كانت المستويات الأثرية مليئة بالمواد الأولية المتمثلة في الأفران والفحم والفخار الجرسى الشكل والأدوات الحجرية والأدوات المعدنية والعظمية (صورة رقم 9)، هذا فضلا عن بقايا عظام الحيوانات التي كان يقتات منها كالأسمك (الكهف بعيد عن المحيط الأطلسي بـ 80 كلم)، والخنازير البرية والبوبال والماعز والطيور والحلزونات والهيثم الخ.

ومن أجمل القطع الأثرية المستخرجة من الموقع رأس الرمح النحاسي المعروف بـ بالميللا (Palmela)، (صورة رقم 11) والمخارز النحاسية (صورة رقم 12) والإبر العظمية (صورة رقم 10) وأدوات من الصوان منها أداة دقيقة لصيد السمك (صورة رقم 15)، ومواد تجميل عبارة عن عقد من ناب الخنزير البري على شكل ثعبان، هذه القطعة الفنية فريدة من نوعها (أنظر الصورة رقم 13).

لكن المفاجأة الكبرى تمثلت في اكتشاف بقايا بشرية كاملة لإنسان مدفون على الطريقة الجنينية (صورة رقم 8). ومن المعروف أثريا أنه لأول مرة يعثر في إفريقيا على إنسان كامل مدفون يعود للحضارة الجرسية الشكل والحضارة الحجرية المعدنية. وقد عثرنا على الأحجار المحيطة بجسمه في المدفن على بقايا المغرة (الأوكر Ocre)، مما يعني أننا أمام إنسان مدفون بطقوس معينة توحي بأن الناس الذين دفنوه كانوا يؤمنون بنوع من الحياة أو البعث بعد الموت.

تم العثور على هذا القبر على عمق متر وعشرين سنتمتر من سطح المغارة (صورة رقم 6)، مما يعني أننا أمام مغارة قد تعطي الشيء الكثير حول تاريخ وحضارة هذه المنطقة وبالتالي الدور الذي لعبته في تاريخ وآثار المغرب القديم.

والجدير بالذكر هنا أننا عثرنا على العديد من الأفران بعضها استعمل لطهي الطعام، والبعض الآخر استعمل لتدوير المعادن وخاصة النحاس، رغم أن النحاس لا يستخرج في المنطقة، إذ أن أقرب منجم للنحاس يوجد على بعد يتراوح ما بين خمسين ومائة كيلومتر، وهذا ما يفرض علينا سؤال: كيف يتم الحصول على النحاس؟ وما هي المادة أو المواد التي كان إنسان آيت سيرن يتقاىض بها؟

يبدو أنها الملح الحي (le sel gemme) لأن منطقة وادي بمت وعلى طول أكثر من عشرين كيلومتر كانت تنتج الملح بل ولا تزال تنتجه إلى يومنا هذا. وهناك كهوف نقبت خلال الأربعينيات من القرن الماضي وجدت بها أدوات حجرية لاستخراج الملح تعود للعصر الحجري الحديث من أشهرها كهف معدن الملح. وهذا يدل على أن إنسان آيت سيرن صاحب حضارة الفخار الجرسى الشكل والحضارة الحجرية المعدنية، كان يعرف الملح وقيمتها في الحفاظ على اللحوم ودورها في تحسين تذوق الطعام، مما جعلها مادة استراتيجية بإمكان الإنسان الذي يتوفر عليها أو يملك مناجمها في الحصول على ما يريد. وقد ظلت الملح مادة استراتيجية لغاية نهاية العصور الوسطى. وهذا واضح في القيمة الفنية للمواد الأثرية المستخرجة من إيفري ن عمرو أو موسى والتي تعني أن أصحابها كانوا ميسورين (صورة رقم 7).

تعود أهمية هذه الاكتشافات الأثرية إلى أنها تؤرخ بالعصر الحجري المعدني وخاصة عصر النحاس وحضارة الفخار الجرسى الشكل (ما بين 6000 و 5000 قبل اليوم). وبالتالي تنور تفكيرنا وتساعدنا على فهم أوسع لثقافات عصر النحاس ليس فقط في المغرب، ولكن في كل الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

والجدير بالذكر أن حضارة النحاس والفخار الجرسى الشكل لم يتم العثور عليها لحد الآن إلا في أوروبا الغربية والمغرب ومنطقة وهران بالجزائر (الخريطة

رقم 3). وهذا يعني أن المغرب هو البلد الوحيد من إفريقيا الذي وجدت به هذه الحضارة بكثرة، مما دفع الباحثين الأجانب إلى الاهتمام بهذه الاكتشافات وطلب المزيد من المعلومات حولها، وكذا إلقاء عروض حولها.

وإيماننا من مجموعة البحث الأثري في هضاب زمور بأهمية هذه المكتشفات الأثرية وضرورة الحفاظ عليها والعمل على تمريرها للأجيال المقبلة، فالواجب يفرض عليها أن تقوم بعمليات تحسيسية بين سكان المنطقة وتعريفهم بأهمية هذا التراث الأثري وجعلهم يتحملون شيئا من المسؤولية في الحفاظ عليه، فالتراث ميراث من البقايا الأثرية والمعمارية والخبرات المنقولة التي وهبتها الأجيال الماضية للأجيال اللاحقة مسؤولية الحفاظ عليها، باعتبارها العلامة المميزة لهوية كل فرد منهم، وبأنه (التراث) في الوقت ذاته ميراث وقسمة.

فالتراث ميراث للبقايا الأثرية والمعمارية والخبرات المنقولة التي وهبتها الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة ووضعتها في متناول يدهم.

كما أن التراث قسمة مع الآخر، والآخر الذي لا ينتمي للجماعة نفسها، قد تجعله هذه القسمة قريبا منها كما يذكر الأستاذ فؤاد صوفي في إنسانيات (عدد 12 — سبتمبر — دسمبر 2000 (مجلد 3، ص 1). وأن يؤمنوا بأن التراث مادة استراتيجية، أي أنها إذا فقدت فلن تتجدد مثلها مثل البترول. فهناك من الشعوب من ليس له تراث لكنها تحاول تأليفه (إسرائيل)، وأن فقدان التراث يعني فقدان الذاكرة ويعني كذلك إفقارا اقتصاديا حقيقيا للمنطقة التي تفقدتها. فالذاكرة هي التي تساعد على اتخاذ القرار، ولذلك فالإنسان الفاقد للذاكرة لا يستطيع أن يستدل على باب بيته، فكيف يصنع مستقبله ويطور ذاته؟

أما عن الدور الاقتصادي للتراث الثقافي فيتمثل في إدماجه في التنمية المحلية عن طريق السياحة الثقافية، مع إشراك سكان المنطقة في هذا الاختيار من أجل الاتزان والتناغم بين الإنسان وبيئته.

ولكي يمكن لإنسان المنطقة أن يلعب دورا رياديا في إدماج المنطقة في التنمية. فمن اللازم العمل على إطلاعه على جميع العمليات التي تخص منطقته حتى نكسب ثقته؛ وذلك لكي ييسر لنا باقي الإجراءات الرامية إلى تحسين مدخوله

من هذه العمليات:

تحسيس السكان المجاورين بأهمية الماضي في فهم الحاضر، وقيمة التراث الأثري في ذاكرتهم وضرورة الارتباط به واعتباره تراثهم، واستقطابهم إلى داخل التراث.

ولكي يتمكن من إقناع أبناء المنطقة بأن ما تم اكتشافه من آثار هو جزء من تراثهم، وضعت المجموعة مخططا لإدماج هذا الموقع الأثري وباقي المواقع الأثرية في المنطقة في التنمية البشرية المحلية وذلك من خلال:

1 - وضع مسالك سياحية قروية تتضمن ما يلي:

1.1 - بناء طرق عادية تسهل التجوال إما على الأرجل أو بالدراجات الهوائية والدراجات النارية أو الخيول.

2.1 - بناء غرف للضيوف لكل دار تحاذي الموقع أو قرية من المسلك السياحي القروي. تتوفر هذه الغرف على الطاقة الشمسية لتوليد الكهرباء ولتسخين الماء مع مرافق صحية نظيفة.

3.1 - تكليف الساكنة بتدبير هذه الغرف وبخدمة السياح أكلا وشربا ونوما حسب عادات وتقاليد الساكنة لا حسب ما يتم في الفنادق، وهذا كله بالمقابل. وهذا المقابل تستفيد منه الساكنة لتنمية دخلها.

4.1 - تكوين بعض حملة الشهادات أبناء المنطقة كمرشدين سياحيين متخصصين في تاريخ وآثار وحضارة المنطقة بالدرجة الأولى وتاريخ المغرب بصورة عامة.

5.1 - تنظيم مواسم للقنص البري خاص بالسياح وبمساعدة الساكنة.

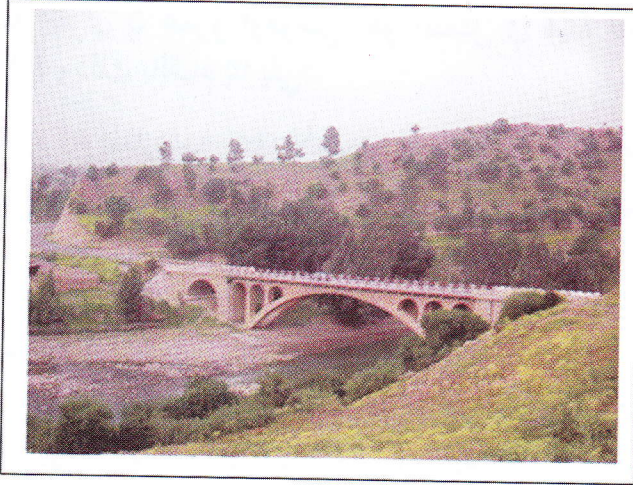
6.1 - تنظيم مواسم لصعود الجبال في المنطقة (Alpinisme)

7.1 - تنظيم مسابقات مائية في البحيرة الواقعة بالمنطقة.

8.1 - تنظيم مخيمات دولية بالمنطقة خلال فصلي الربيع والصيف.

2 — أن الشيء المستعجل الآن، ونظرا للإقبال الجماهيري الكبير الذي عرفه إيفري ن عمرو أوموسى، هو المتمثل في تهيئة المجال المحيط بالمغارة وذلك بالقيام بما يلي:

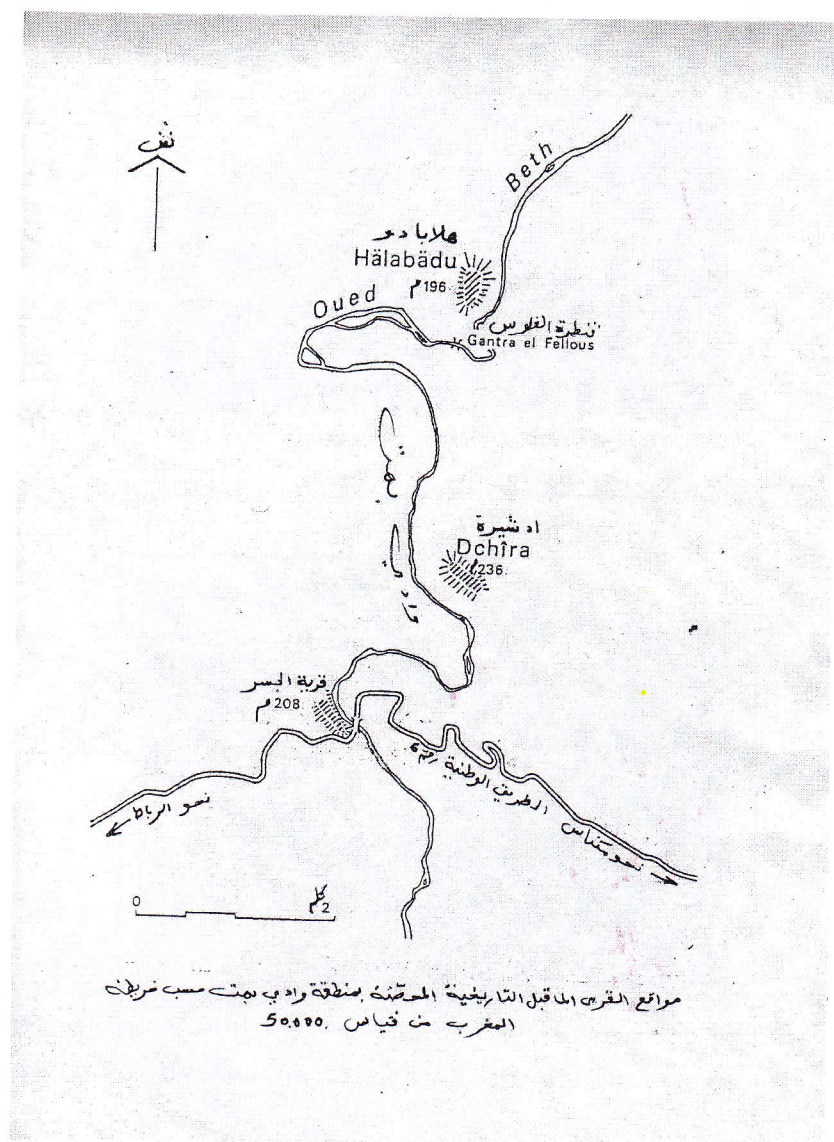
- 1.2 - إفراغ المغارة من كتل الأحجار التي سقطت من السقف.
 - 2.2 - تحويل الملجأ الصخري الملاصق للمغارة إلى مكان لعرض الصور الخاصة بالمستخرجات الأثرية وقصاصات الصحف التي تحدثت عنها.
 - 3.2 - تهيئة ممر للراجلين بالأدوات المحلية يسهل على الزوار الوصول إلى الملجأ مكان العرض الدائم.
 - 4.2 - كهربة المغارة والتل الموجودة فيه باستعمال حبال مدفونة وإنارة ملائمة.
 - 5.2 - تهيئة فضاء للراحة يتضمن موقفا للسيارات، وأكشاك لبيع المنتوجات التقليدية ومرافق صحية.
 - 6.2 - وضع علامات التشوير تعلن عن المغارة على جانبي الطريق الوطنية رقم 6 سواء في اتجاه مكناس أو في اتجاه الخميسات.
 - 7.2 - وضع حراسة دائمة حول المغارة لحمايتها من الفضوليين.
 - 8.2 - نشر مطويات حول المغارة ومواقع وادي بهت.
 - 9.2 - التفكير في إمكانيات صنع نسخ من المواد الأثرية المستخرجة وعرضها للبيع في عين المكان.
 - 10.2 - إنشاء غرف للضيوف في الدور المجاورة للمغارة مجهزة بالمرافق الصحية والطاقة الشمسية.
- لكن قبل هذا وذاك من اللازم وضع مخطط خاص لإحياء الغابة التي قضى عليها الإنسان في محاولة منا للعودة بالبيئة إلى سالف عهدها.
- وبالفعل، فإن هذا المشروع تبنته السلطة الإقليمية وأدخلته في مشاريع المبادرة الوطنية للتنمية المحلية، وسيبدأ إنجازها بمجرد المصادقة عليه.

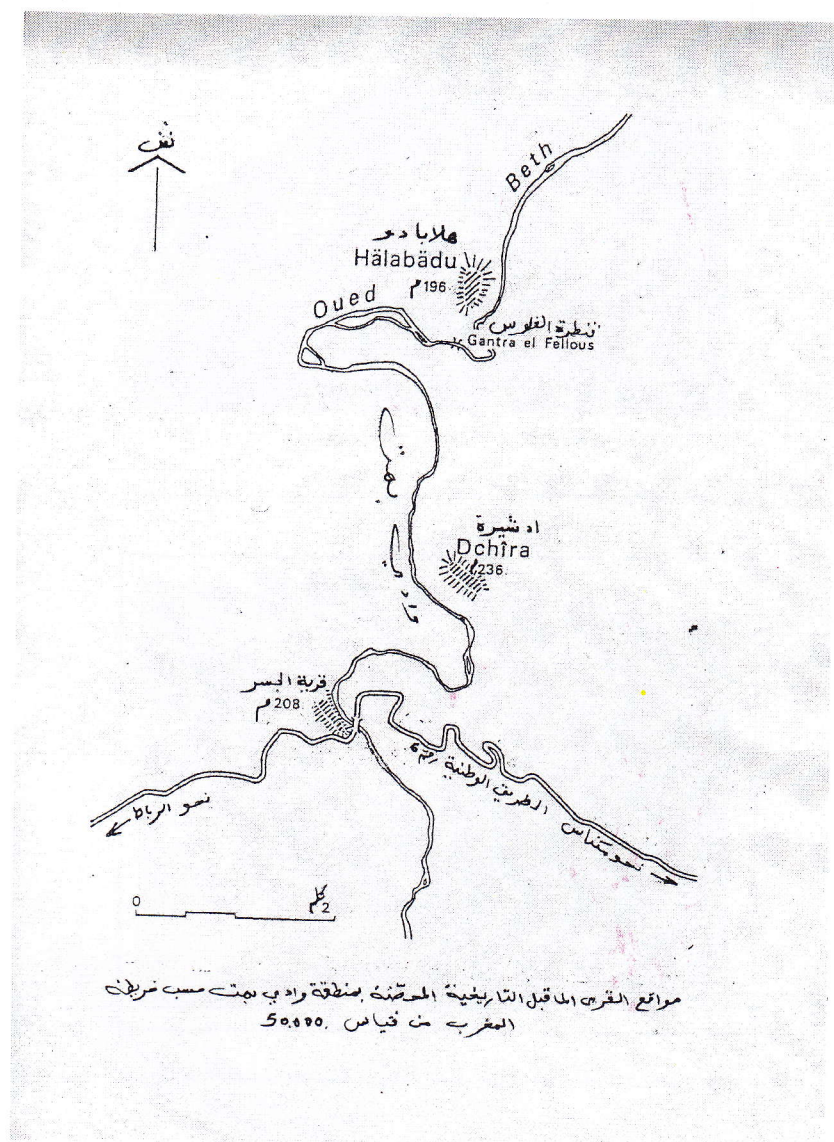


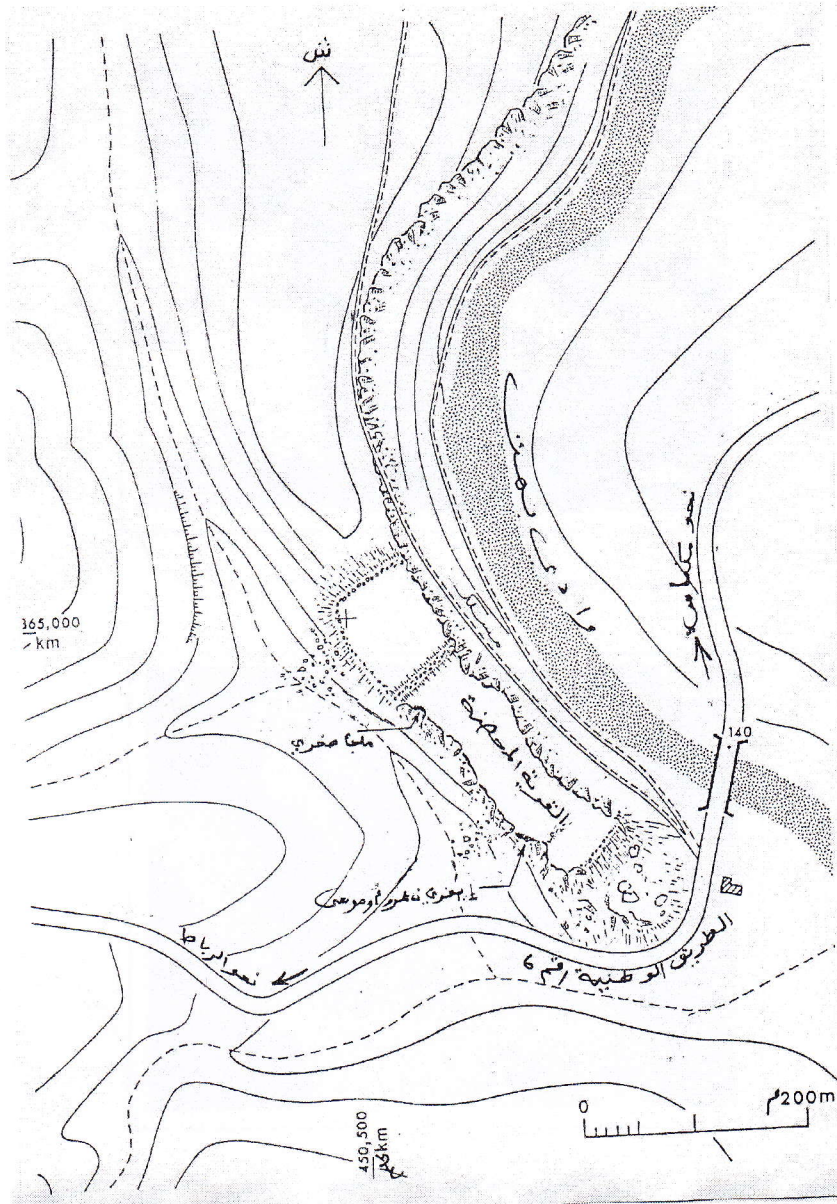
صورة رقم 1: الكهف المعني بالتنقيبات يقع في أعلى التل الموجود خلف الجسر الواقع على الطريق الوطنية رقم 6.



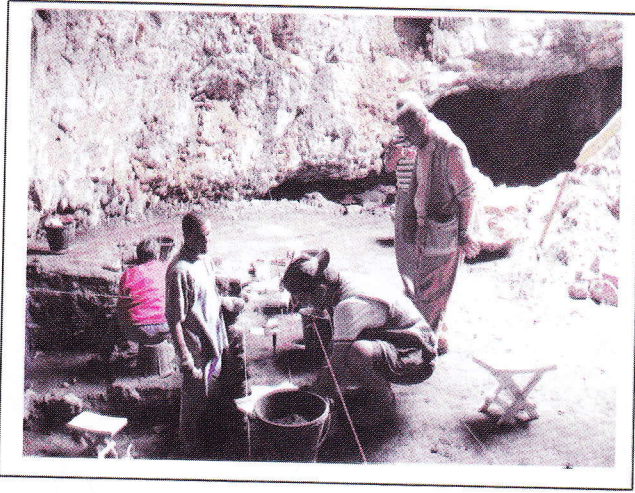
صورة رقم 2: المغارة في الأعلى والمسلك المؤدي إليها لاتزال الحيوانات تستعمله إلى يومنا هذا.



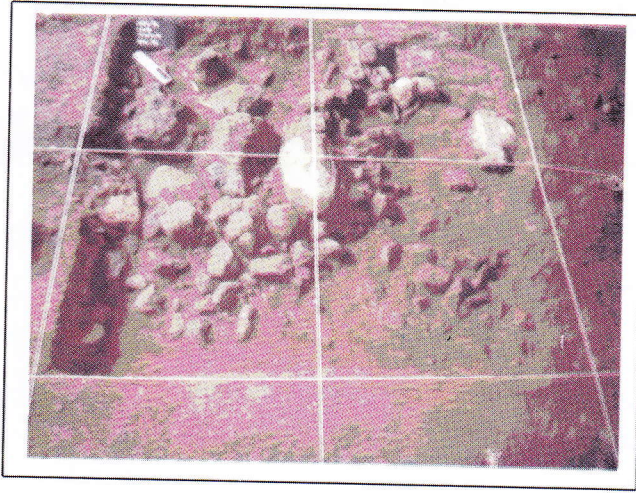




خريطة رقم 2 : تبين موقع القرية المحصنة المشرفة على جسر وادي بهت الواقعة
على الطريق الوطنية رقم 6 .



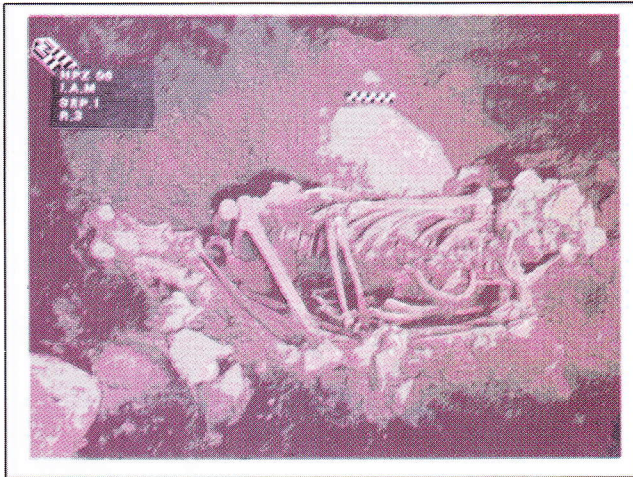
صورة رقم 5: منظر من داخل المغارة خلال أعمال التنقيب.



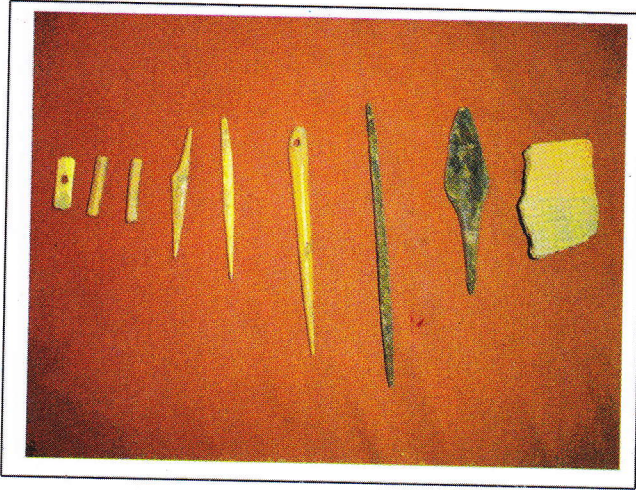
صورة رقم 6: بداية ظهور المدفن



صورة رقم 7: قطعة من الفخار الجرسى الشكل الذي تم العثور على عدد مهم منه في الموقع والمحيط الدائر به. وهذا النوع من الفخار لا يوجد لحد الآن إلا في المملكة المغربية وغرب أوروبا



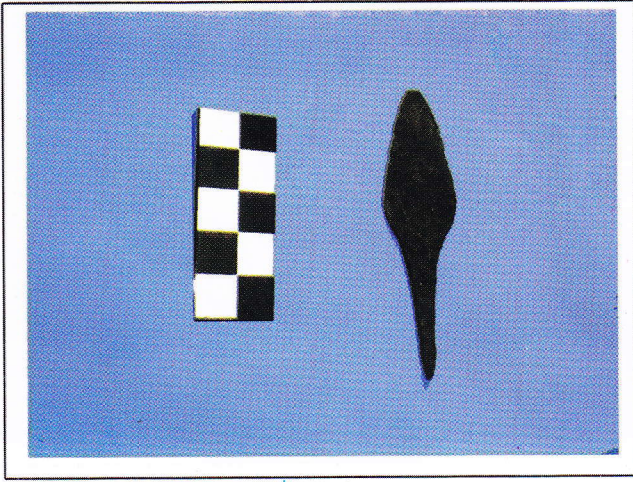
صورة رقم 8: بقايا بشرية مدفونة لإنسان الحضارة الحجرية المعدنية والتي تعرف أيضا بحضارة الفخار الجرسى الشكل.



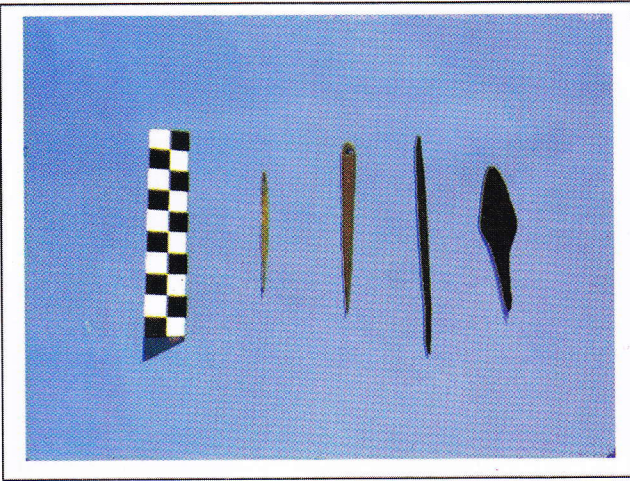
صورة رقم 9: نماذج بعض المواد الأثرية التي تم العثور عليها خلال تنقيبات موسم أبريل 2006.



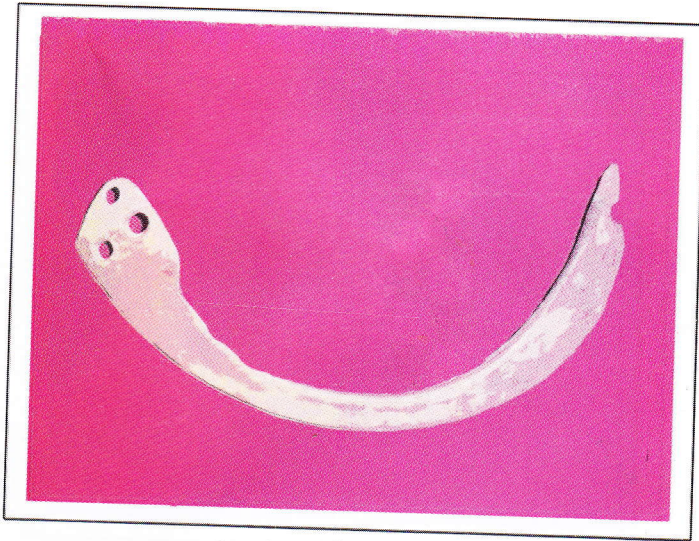
صورة رقم 10: نموذج إبرة من العظم استخرجت مع مجموعة من الأدوات العظمية التي كان يستعملها الحضارة الحجرية المعدنية.



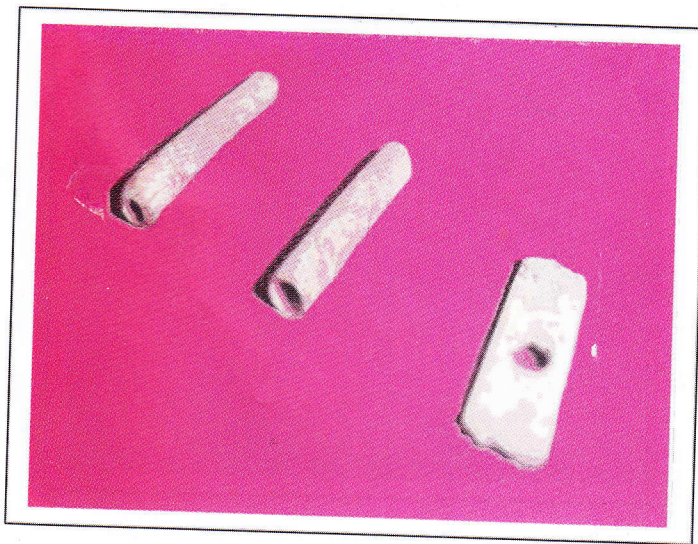
صورة رقم 11 : الأداة النحاسية المعروفة بالمليلا، وهذا النوع من الأدوات النحاسية لا يوجد أحد الآن إلا في المملكة المغربية وأوروبا الغربية.



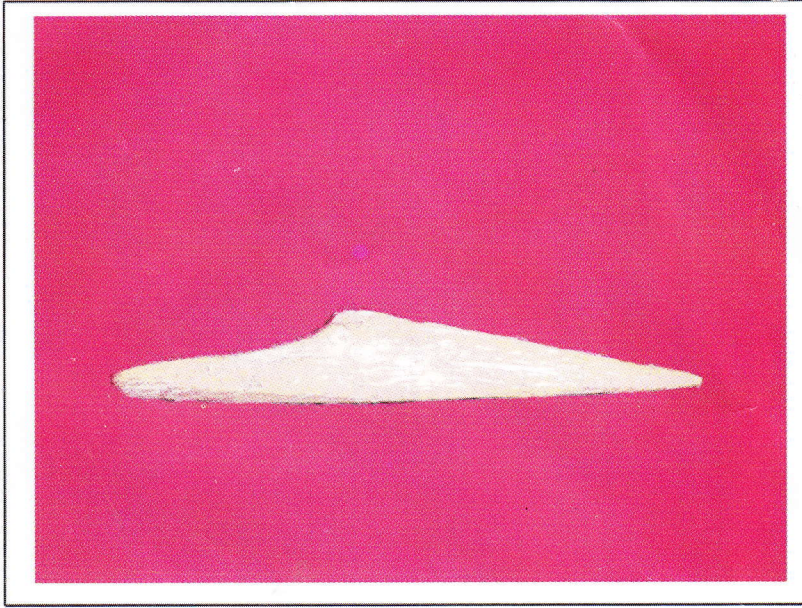
صورة رقم 12 : تمثل أدوات نحاسية (بالمليلا ومخرز) وعظمية (إبر).



صورة رقم 13 : عقد على شكل أفعى من عاج ناب الخنزير البري؛ ويبدو أنه عقد فريد من نوعه لحد الآن في العالم.



صورة رقم 14 : نماذج من وسائل التزيين المصنوعة من العظم.



صورة رقم 15 : أداة تستعمل في صيد الأسماك.